ساحل آخر .. للموت

قصة

بقلم موسى كريديه

اصوات نساء (*) ، وزعيق اطفال ، ونداءات غامضة ترتفع عالية كرايات المساء المبقعة بالدم والراسية فوق اكثر المداخل شهرة ، وعبر كل ساحة مكشوفة ، وعند مقدمة اي زقاق يمثل الواجهة الاكثر الفة للمحلة تظل هكذا بشاراتها الدامية ترف في الريح الاتية من ممرات الازقة ، ومن خلالها تبدو المصابيح كابية الضوء سرعان ما تتضاءل ، وتتغير الوانها خلال اللهب الطائر من مئات المشاعل النافرة ، والمحمولة فوق اكتاف جمهور ضخم من شبان حفاة نلهث حناجرهم بينما تتلفع رؤوسهم باكفان بيضاء مهيأة للدم الذي سوف ينز فوق الرؤوى بحد السيوف ، و (القامات) وهي تعتلي كل مكان من المدينة المحتفلة فوق خط من الاصوات ، والرمال التي تبض الحمى ، والنار .. النار التي تدور وتلتف حيث يطوف الناس حولها سكارى ، مرتجة رؤوسهم المعتمرة ارتجاج موجة غفلة .. وتسود اقدامهم العارية بفعل اختلاطها بقطرات النفط الاسود ، المحرق ، المتساقط من فوهات بضعة ابار يق ترافق المشاعل اثناء الجري والطواف ، وهي داكنة شديدة السواد ، صفيحية تهال فوق اللهب فيتساقط شرارات صغيرة سرعان ما تستحيل رمادا .. ويقترب الناس جياعا لاصوات مئات الطبول والصنوج المتجمعة والمتآخمة لاصوات النيران الصاعدة في افق يموج بالصفرة والدخان .. الناس تقترب فيعلو الصخب مع تصاعد النار ، الموزعة عبر مجموعات تمشي على طول الطرقات ، وتتداخل ، بين حيطان ازقة كثيرة لا انتهاء لها . الكل يقرب دائرة النار غير ان اكثر الناس تتقي اصابع النار بحركات الطواف ، المستمر وفق الضربات الشديدة المتتالية في ايقاعات متكررة قريبة جدا من سواحل الرؤوس العارية ، والرؤوس المعصوبة وهي تتواصل في بدائية وتوحش متوافقة تماما مع حركات الرؤوس المخدرة ، والمغمورة في مياه الصخب وهي تجري بشكل عفوي في منحنيات الساحة وقد تحولت الى دائرة نار سوداء .. ثمة صخب اذن ، جار ، مجرى المناكب وهي تتدافع ، وتزاحم جذوع البشر الزاحف كالنمال ، وتبدو الرؤوس ، هذه المرة ، مغمورة في فيض من الصوت واللهب ، والرائحة الغريبة ، رائحة النشادر ، المحترق . ويتقي الجميع دوائر النار ، ويمسي هذا الاتقاء في مثل هذه اللحظات المتوترة شيئا مألوفا وممكنا . والاطفال يشاركون ايضا . بسراويلهم المصعدة جد البطن ، وايديهم الناعمة التي تحمل الخناجر الصغيرة ، او العصي الخفيفة بدل السيوف اذ تحل مكان السيوف غير ان طفلا ها هنا ، يحمل سيفا اطول من قامته ، واثقل من وزن ساعديه ، وهناك طفل آخر يبارز آخرين امام نساء يتجمعن على الجوانب او فوق الشرفات العالية ينظرن بعيون واسعة ، واخريات يمسحن بنظرات ظامئة صدور الشباب وهم يمرقون كالنيران ، وقد تلتقي العيون بالعيون لقاء سريعا رغم عباءات سوداء تخط تراب الارض غير انهن يرفعنها قليلا فيبدو ابيضاض رخص في السيقان ويشتد احمرار اللهب على مقربة منهن .

تتوسط الساحة مدخل الصخب حيث ينهض باب ضخم يقابل سوقا قديمة .. السوق تبدو ردهة مستطيلة تتلاصق حوانيتها في خطوط غير مستقيمة تفضي الى عشرات من الازقة المليئة بمقابر الموتى وبالدخان والنعاس . وهذه الازقة تتكشف لمن يطؤها كممرات راقدة ، شبيهة بانفاق ذات عتمة دائمة ، تغطي مياها آسنة وطينا ذا روائح كريهة تعبث به في الغالب ، سيقان الصغار .. الازقة مكتظة كالساحة وهي مليئة بنفايات كثيرة ، وسيوف مطفأة ، والواح خشب متشققة ، وبقايا دم متعفن ، ممزوج بقطرات من النفط الاسود الذي اعد لتزويد المشاعل ومثله عشرات تنتظر مع انتظار مئات الشبان وهم يتأهبون للعمل .

ويلتفت للاصوات . يستقبل بفرح آخر نداء يكرر اسمه امام الجماعات ، والقبائل وهو صامت يحتفظ وجهه بتقاطيع هادئة ، وسمرة محببة وقد يبتسم وهو في نشوة الصراع ونظهر نشوته الاشد غموضا ساعة الطواف الدائر في حركة لا تعبأ بالسكون مطلقا ويمضي معهم حاملا هراوته ، والسيف مخبوء في غمده يبين مقبضه الفضي حيث يتدلى يسارا ولا يسل الا في اليوم العاشر عندما تبدأ ساعة تفجير الدم ، المحاصر ، في اعلى الرأس .

ثم يلقي بهراوته ايضا فتتألق عيناه وتظهر وجهه صافيا مشعا بحمرة اللهب الساقط عليه ويقترب اكثر ويهم برفع سيفه ولكنه يعدل عن ذلك ، فثمة مهمة اخرى في انتظاره الآن يريد وحده ان يقوم بتنفيذها ، لذا راح يمسك بابريقه ، يرفعه بمهارة . ويصرخ بحملة المشاعل ان تأخروا واذ يمسك بابريق النفط الاسود يمر خلال الجموع الهادرة وينتقل كالنحلة بين الجمع المتنقل هو الآخر من زقاق الى زقاق وتصب الجموع في الساحة الصغيرة المقابلة للباب الواسع المؤدي الى الضريح .

* * *

بعد الساعة العاشرة في الليل ، تتجمع قبائل ـ الاطراف ـ تحمل

(*) هذه القصة واثنتان نشرنا قبلها ـ طقوس العائلة ـ و ـ الشمس خارج السور ـ اضاءة واكتشاف لواقعين ما نزال نعيشهما ـ واقع الثورة ، ونقيضه ـ واقع الدروشة ـ وكلاهما لا يتبادلان المواقع ابدا . واذا كان ثمة بطل ينتظم القصص الثلاث فهو هذا « الواقع » النقيض .

سلاحها ، والاطفال يشاركونها ، وتتصدرها رايـــه المحاربين ، واصوات الرجال تشهر عبر الازمة الشبيهة بالدهاليز ، وترتفـــع كالسيـــوف ، وكاباريق النفط وهي تصحب المشاعل في مسيرتها الليلية على انغـــام الصنوج والطبول حيث تلتم جميعها في الساحة الصغيرة .

* * *

عمود المشعل مضلع ذو ابعاد مطموسة يبدو دهني اللون ، مصقولا وطويلا بعض الشيء ، مصبوغا بالقار الذائب وقد اصطفت على حافتـه « شمعات دائرية » وقودها النفط الاسود وكتل من خرق عتيقة مكثفـة داخل مشبك صفيحي مندى بالسائل . وبالمشعل يطوف غالبا رجـــل واحد ويدهش الناس حين يقابلهم رجل مسن يحمل وحـــده المشعـــل ويدور به بسرعة .

نظر الشاب ، حامل الزيت ، فرأى شخصين قويين يحملان المشعل وتمنى ان يقوم بهذا الدور وحده مكتفيا بقوة عضلاته دون مساعدة ما ، ودار عدة دورات امام العيون التي لا تنتهي ، ولكنه شاهـد فـــي نفس اللحظة مئات من الايدي نشتبك مرتفعة تريد حمل المشعل الـــدوار .. ويرتفع اللهب الساري ، ويسمع صوته عن قرب .. وفجأة اقبل جماعة صاحوا باعلى اصواتهم .. انهم بحاجة الى سائل اسود فلديهم مشعل ظامىء .. مطفأ .. اسرع الشاب نحوهم وبدا سريعا وظهر شعره المسدل وهو يغطي جزءا من عينيه اللتين ازداد بريقهما ساعة نودي عليه .. رفع ذراعه فبدت قامته على طولها ، وبانت عضلاته .. صب السائل الاسود، ولمحه وهو ينساب ، وجرى خطان اسودان غليظان ، على متنيه وتوزعـا فوق صدره ولامسا جلده ، وكانت في هذه الاثناء تمر من جذعه وخلال ابطيه عشرات المشاعل وهي تجتاز الساحة بقوة ، وتحط فوق ارضيـــة الصحن التي استحالت الى طبقة زيتية سوداء .

يتزاحم الناس في رؤوس دوارة ، تطوف حول المشاعل حيث يعلـو الصوت اكثر فاكثر مناديا الواقفين بالجلوس غير ان احدا لا يسمـــع تحت ظل « الهوسات » المتشابك عبر حشد ما يزال ينمـــو ، ويتضخم وسط لهيب صاعد ، ورايات تخفق والسماء هناك لا تكاد تبدو من بعيد، غير ان الاعلام الخضراء والحمراء اليابسة ، والنازفة ترتفع في الريـح وتموج خلال سحب منعقدة من الدخان تعلو رؤوس الاف مـن الناس . وخلال هذا جميعا يظهر الشاب ، حامل الزيت ، مرتديا ثوبـــا ناعـــم الملمس ، ابيض ، رقيقا ، يافته مترية ، واسوداد يظلل كتفيه .

* * *

داخل الصحن لم يكن ثمة نساء غير ان زحامهن بدأ يشتد بشكـل غريب لصق مداخل الابواب . وصار بمقدورهن ان يصوتن مرة واحدة. انهن ـ رغم الحواجز ـ يصرخن ، في الخلف ، صراخـــا متوحدا يهب الامكنة ـ رغم ضجيجها ـ رهبة . بعدهـــا تسترخي الحناجر فتطلـــع الانفاس ممتدة ، متطامنة في شجو هادىء اشبه ببكاء غامض لحمائـــم مضطهدة . الصراخ العالي يتقطع ، ويسمع بين فترة واخـــرى لا تجاوز البرهة ابدا . وقد ينطلق متتابعا حين تمر من امامهن فافلة من رؤوس مدماة ، فقدت ملامحها الخارجية تماما ولم يعد ما يميزها غير حركـــة ذائبة .. جثث تتحرك . حركة تتوافق دائما مع هدير الاصوات ،ولمعان السيوف وهي تنقل صور النار ، عـــن قرب ، وتمضي بازاء الضريح ، وخلفها فافلة الاصوات وهي تلاحق الرؤوس التي تمر ببطء ، متوغلة في الحرم الذي خلا من « الحريم » .

شيئان يلفتان انظار النساء ، رأس مدمى ، بيض الدم ، « ما زال السيف اللامع يندق فوقه ، يرتفع عن قمـــة الرأس شبـــرا فتنسكب قطرات من الدم ، وتختلط بالدم الجاري » ومشعل دوار « يحمل عـــادة فوق الاكتاف فيتساقط من حافاته لهب يسمع صوته » يحتل المشعل ، فضاء الساحة ، ويدور لحظات ، خاطفة ، تنحني الرؤوس تحت حـــد النيران ، وسرعان ما ترفع اذ حالما يهبط المشعل فوق الاكتاف ، وخلال دورانه المتسارعة ، تتجه الانظار كلهـــا نحوه . وكلما اشتد طوافه « مـــع انحناءة في الرؤوس التي تنحني للحظات باختفاء السيوف ، والهراوات، والخناجر » يعلو صراخ النساء متهاطلا كالمطر من خلال الشرفات القريبة، وعند المداخل الضاجة .

* * *

قبل بدء النفير يستمع في الغرفة ، شبه المضاءة الى صوت ابيه ، الخارج من داخل الظلمة في القبو ، المخبوء تحت الغرفة التـــي تسكنها العائلة حيث يصدر الصوت متهدجا ، لاعنا في لفط ، وشجار ، الابـــن الضال ، الابن الذي يتأخر دائمـــا ، الساقط سقوط المساء والجنادب في الزقاق الملون ، بخطوط الروث ، والزهـــري ، والخرق المبتلـــة ، وباستدارات يابسة لبقايا فضلات اطفال يتفوطون ، ومنحنيات لاثـــار صفراء خلفها البول لصق كل زاوية من زوايا الزقاق المعتم .

بعد رشفة بصاق ، وسباب مقذع ، يصفق الباب ، ويمضي فتنفطس قدماه في السوائل الجائية منذ ايام على طول الزقاق اذ تنبعث الرائحة وتظل اياما اخرى تفح من فم الزقاق فحيحا لا يكف رغم غطاء ابيض مـن تراب ناعم يحاول الجيران ان يفترشوا به الارض عسى ان لا يعثر احـد ما بالوحل .. تخرج الرائحة رغم هـــذا مـــن فوهات البيوت المتلاصقة تلاصق الحجارة ، ويخرج الشاب ، حامل الزيت ، عابرا فـــي انتظـــار الاصوات .. ثمة طبل . وبضعة صنوج .. ثمة سيوف . وضوء يرتفـــع فجأة في الليل .. مشعل متوسط الطول يخرج من هذا الزقاق وقامتـــه تتحرك باتجاه الجموع المتأهبة لمسيرة المواكب الفرعية التـــي تفرغهـا الازقة فتتموج في قوافل للشبان ، وقوافل اخرى لرجال المدينة ، تتجه كلها متلاحمة وتنصب في خطوات تمتزج ببقايا نشـــار التراب الملون ، وتصب جميعا في الساحة الصغيرة ، الموازيـــة لمدخل الصحن حيث تتنامى طبول الحرب ، وتتآزم نبرتها ولا تفقد رنينها المعتاد رغم اختلاط ادوات الطف ، والحرب ، بالبكاء والدخان ، ورغم اللون الساقط مـــن خلال النيران فوق الاف من وجوه النساء .

* * *

كما ينتشر الدخان ، السيوف تحت الريح ، لهاث النار المتصاعـد مع تصاعد انفاس النساء .. ينتشر صدى الخبر الليلي ، تطلع الالسنة، ويرتفع او ينخفض حاجبا رجل مسن ، او امرأة في سن اليأس في بهو من الدهشة ، يوشوش حتى الصغار ، وهم في دأب الركض ، ويثرثـــر رجال المدينة وهم بين مصدق ومكذب ، واذ يغيب الشاب ، الابن الضال « كان فيما مضى ابنا ضالا وكان يصقل السيوف فـــي التكايا المجاورة للزقاق وينام فيها مع الاطفال يلامس في الليل عري اجسادهم » ثـــم تظهر اللحى في حضور النساء وهـــن يصرخن فتخفق الرايات الملونـة والصنوج ما تزال ترتطم بقوة ، الاكف لا ينالها التعب ، اللحى طويلـــه والمشاعل ما تزال تحمل .. ولصق البطون تماما تضرب الطبول ولا تكف عن الرنين لحظة واحدة « ركض في الزحام .. احترق » يسارع نحـوه الناس . الاصوات الناعمة تركض نحوه . النار لم تلحق بـــه ، لكنه ، راكض في النار « ركض وكفاه فارغتان » ـ هل مات ؟ ما تزال السيوف ترتفع في الطرف الآخر ، وترتفع بوقار ، ثم تنـــزل . يقودها مشعـــل عتيق . وراية « الطرف » تتصدر الموكب وهـــو يشق زحاما آخـــر . « لا لم يمت . لكنه احترق » وفجأة غمرت المدينة كلها ريـــح سوداء . اطفأت الاضواء ، ولمعان السيوف ، واستنـــار الناس بضوء المشاعل . هدأت الريح بعض الشيء . وانيرت الشوارع ، والاسواق ، وهنـــا ، صلى الناس على نبيهم الكريم ، وتراكضوا « مات الشاب حامل اباريـق النفط » النفط الاسود لم يجر .. لم يجر النفط الاسود .. تضاءلت نيران المشاعل ، وتجمع الالاف حول ـ حملة الجثة ـ اين الجثة ؟ صاح الرجال . اين السدية ؟ (...) ؟ صرخت النساء (يبو ، يبـــو) ... لم يعد في وسع احد ما ان يراها رؤية العين ، فالزحام يغطـــي كـــل شيء . وانفض الزحام ، وتدفقت مواكب « الاطراف » ولا اثر لجثته . « اين دفنوها ؟ لم تدفن . اهي في المستشفى ؟ لا .. اين اذن ؟ لا احد يدري . ذابت ؟ لا .. احترقت ؟.. نعم » في صباح اليـــوم الثاني ، نزلت الشمس كعادتها فلم ينهض احد . لكن الناس نهضوا في الضحى،

وتراكضوا ايضا ، وصاحوا باعلى اصواتهم ، وعملوا .. وتناسلوا ايضا. وناموا الظهيرة . ثم افاقوا . « ربما اختطفته السماء » غسلوا وجوههم، واستروحوا الغبار الذي تأتي به الريح من خلل الازقة ، والشوارع الخالية ـ (ماذا تقولون ؟ اصمتوا .. لا تقولوا احترق .. لا تقولوا ذهب لقد صعدت روحه الى السماء) خرجوا للصلاة جماعات ، وافرادا بعدما تركتهم الشمس في الغسق .. تقابلت الوجوه واللحى « مولانا.. ما هذا الكلام ؟ انا شاهدته . بعيني شاهدته ـ تجمع رهط واخذ يرهف السمع ـ شاهدت امرأة محجبة ـ تجمع رهط آخر ـ ظهرت فجأة من بين الناس ، كانت تلبس حلة السواد ، اقتربت منه ، تفرق الزحام ، وفي لحظة صمت ، رفعت ذراعيها على نحو غامض ، دنت منه ، ضمته في الحال اجل في الحال ، ولم نعد نراها ، ولم نعد نرى الشاب بعد ذلك » ضحك بعض الواقفين وكفوا عن الضحك ساعة وجدوا انفسهم محاطين بوجوه مصفرة ، وعيون غائرة ترسل نظراتها بقسوة ، وندينهم ، وتفرقوا جميعا ، متوزعين غير ان واحدا منهم تخلف فلم يسر في ايما اتجاه ، وفضل ان يقف ، وان يسمع كلاما آخر حول الجثة ، الطائرة ، وحاول وهو يتأمل ، ان يرسم صورة ما للسماء التي غيبت شابا يعرفه عن قرب فسقطت عيناه اسفل يديه المسترخيتين ، فرأى رجلا يقفى كالشبح ، ويثرثر متحدثا بلباقة عن مصير الجثة راسما ابعاد الخبر الليلي بامانة رجل مسن عيناه تحركان افقيا ، ويداه لا تكادان تظهران لشدة اتساع كميه . لكنه ما لبث حتى تنحنح قليلا ، وتحرك نصفه الاعلى فظهرت يد متقوسة ، نحيلة تقبض باصابع صغيرة مشطا غامض اللون ، محدبا .. لم يكن الرجل الشيخ يعير ادنى اهتمام للشاب الواقف خلفه .. كان الشاب يرقب حركاته ويستمع اليه ، يتحدث بصوت ضئيل يخاله صادرا من اعماق كهف قديم . حول الشاب نظره فرأى « خدم الضريح » في عمائم خضر يتصايحون . ويشتد تدافعهم . يتشاتمون ، ويتقاذفون التهم بكلمات اللواط ، اصابعهم تتحرك في الهواء ، وعيونهم تتسع . بصق احدهم بقوة وشتم غريمه بينما راحت اقدام الجميع تلتف وتلتف حول « الذبيحة » وتابعت نظرات الشاب ، خط الدم ، الممتد من الرأس حتى عتبة الباب الواسع ، وحدق في وجه الشيخ الجالس فرآه ما يزال يمسد لحيته ولم تمض لحظات حتى نهض الشيخ وبدا طويلا ، وعمته على رأسه ، وسار بخطوات ثقال وكان واقفا دون ان يتحرك غير ان عينيه لم تفارقا ظهر الرجل المسن ورآه ينعطف نحو الرواق الملاصق للضريح ، فتحرك باتجاه الرواق فرأى الشيخ يمشي ببطء ، ونوفف ورآه يفتح مقبرة صغيرة . كانت المقبرة عالية بعض الشيء . صعد فاضاء المصباح « ثمة مقابر ، في الرواق شبه المعتم تعلو الارض قليلا وهي ذات واجهات حديدية نظهر بشكل مربعات فتبدو المقبرة كقفص » جلس الرجل في الداخل بعد ان خلع عباءته وبدأ يحرك رأسه يمينا وشمالا ثمة مسبحة طويلة ، واوراق باشكال مختلفة . بعضها مستطيل ، والآخر ملون .. فوق الورق الابيض ، افعت سلسلة برنزيه اللون كانت تتألف من قطع مربعة « ثمة حروف سوداء مبهمة ملطخة بالحبر حفرت فوق كل قطعة » .

* * *

في الطرف الآخر رأى ثلاث كتل من الناس في ازياء مختلفة . وقفوا ينشدون وعيونهم مشبوحة بينما تحركت ايديهم حركة واحدة وفي اثناء ذلك قح اثنان ، ومخط ثالث ، غير ان ثلاثة آخرين كانوا يتهامسون في خفاء وانظارهم تمسح كتفي صبي كان يقف على مرمى ايديهم وكان يضع يديه الناعمتين في جيبي معطفه وبان شعره وبدا بعضه منتظما والآخر مهملا وكان المهمل اشد انارة .. وقفت الكتل الثلاث بعد ان انحنت ظهورها قليلا عندما تجاوزت الاقدام عتبة الصحن . وتتابعت اصواتها بعد ذلك وقبل ان تستقر امام الرواق شبه المعتم تقدم واحد من الاشخاص الثلاثة قليلا الى الامام فلامس بكتفه الصبي فلم يفهم الصبي شيئا ولا معنى الحركة المفاجئة غير انه نظر جواره فرأى الشخص يراقبه بطرف عينه بينما راحت اصابعه تفتعل العبث خلال شعر اللحية .. هاجت الكتل الثلاث هياجا اشد وفي خلال هذا الهياج كان باستطاعة الصبي ان يفلت ، وينضم الى كتلة اخرى . حاول ان يفعل ذلك غير انه احس بيد تمتد وتدعك فخذه . تسمر الصبي في المكان ونظر الى وجه الرجل الذي يحاصره فرآه ينحب ، ويولول ، ويبكي بعينين فارغتين . وبلغت الحماسة بالرجل مبلغا فظيعا فقد رفع يده ، وارفقها بالثانية ، واخذ يلطم على وجهه لطما شديدا . وكانت عيناه ـ آنذاك ـ لا تفارقان وجه الصبي المصبوغ بدهشة لم يعهدها من قبل.

لم تكن عيون الرجال وحدها تتواصل بالبكاء ، ولم تكن جباههم معفرة بالتراب فعلى مقربة منهم اقامت النساء طقسا آخر . يعثر الرائي بسماء مفضنة ، ومختفية خلف عباءات مغبرة حيث الصراخ يعلو مخفيا حمرة فوق الصدور ووجوها يعلو قمة النهود .. الحمرة مطبوعة على الشفاه .. وثمة اصفرار باد في الوجوه المطلقة (تتقابل انفاس الفتيات ، وتتقارب ـ دون ان تتصل ـ الشفاه بالشفاه) هنا للبكاء ايضا صدى موزع كافخاذ المطلقات منهن ، سرعان ما ينتشر فيصل حافة المنحدر الترابي حيث مقابر الموتى ، خارج الزمان ، ترتفع حد الافق ، غاطسة في صمت من العراء ، دائم . « قف هنا ، لا تضحك ، الا تراهم؟ انهم ينامون بهدوء لا ينزل الواحد منهم تحت ظل سيف .. ولا تحت ظل رمح .. حامل اباريق النفط الاسود ، هادىء لا يستصي بنار .. لا تضحك فثمة نساء ، يطأن رمل الارض ، يرسمن الدوائر ، ويقرأن وجه الغائب ، يرسمن بالاصابع علامة ، ويضعن العلامة . انهن ، هنا ابدا، يبكين على جثة .. ما زال حية » .

على محمود طه

قصائد

اختارها وقدم لها

صلاح عبد الصبور

عن دار الاداب

٢٥٠ ق ل

صدر حديثا